دولة المدينة بين اثينا ومكة

دراسة مقارنة

الدكتور هاشم يحيى الملاح

ان اظهر مايميز دولة المدينة City-state عن الدولة القومية او الامبراطورية هو ان اقليم دولة المدينة محصور بحدود مدينة واحدة . اما الدولة القولية فيشمل اقليمها عدة مدن وما يتبعها من قرى وضواح . بينما يمتد اقليم الدولة الامبراطورية فيشمل العديد من الدول والاقاليم الخاضعة لسلطة الامبراطورية .

وتبعا لتباين حجم الاقليم بين هذه الانماط الثلاثة من الدول ، يتباين التعداد السكاني بينها . فيلاحظ ان تعداد سكان دولة المدينة يقل كثيراً عن تعداد سكان الدولة القومية ، وهذه الاخيرة يقل مجموع سكانها عن مجموع سكان الدولة الامبراطورية .

ونتيجة لتلك الاختلافات في سعة الاقليم وتعداد السكان بين تلك الدول ، اختلفت الانظمة الاداريةوالسياسية التي سادت فيها . ففي الوقت الذي ساعد صغر حجم الاقليم والسكان دولة المدينة في اثينا على اقامة نظام الديمقراطية المباشرة فيها ، فانه كان من المستحيل ان يكتب النجاح لمثل هذا النظام في دولة قومية او امبراطورية ، لسعة الاقليم وكثرة السكان ، وما يتطلبه ذلك من تعقيد في تنظيم الحياة الادارية والسياسيةفي الدولة .

لذلك فقد اختفى نظام الديمقراطية المباشرة الذي كان سائدا في اثينا بمجرد اتحادها مع غيرها من دول المدينة اليونانية . «١»

« ١ » سباين، تطور الفكر السياسي (ترجمة حسن جلال العروسي) ط٣، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٦٣-١٦٤.

هذا ويلاحظ ان دولة المدينة قد سبقت في الظهور الانواع الاخرى من الدول . وكانت النواة الاولى التي تشكلت منها الدول القومية ثم الدول الامبراطورية بعد ذلك . اذ من اتحاد مجموعة دويلات المدينة نشأت الدولة القومية . ومن توسع الدولة القومية على حساب جيرانها من دول المدن او الدول القومية تكونت الامبراطوريات الواسعة .

وقد ساعد ظهور دول المدينة في العالم القديم على ظهور الحضارات وتطورها كما هو ملاحظ بالنسبة لدول المدينة في كل من وادي الرافدين ، ووادي النيل ، وبلاد اليونان . كما ان الحياة الاجتماعية والسياسية التي ساعدت دول المدينة على توفيرها قد دفعت الفكر السياسي والفلسفي خطوات واسعة الى الامام مما وفر الجو لظهور فلاسفة عظماء كسقراط وارسطو وافلاطون الذين اعتبروا معلمي الانسانية على مدى الاجيال .

وربما كان مما يثير التساؤل ان يتجه البحث لعقد مقارنة بين دولة المدينة في اثينا ودولة المدينة في مكة رغم عظم الفارق الزماني والسكاني بينهما .

ولكن هذا التساؤل قد يتلاشى حين يلاحظ ان كلتا المدينتين كانتا تحتلان مركز الصدارة في البلاد التي تقعان فيها ، فكانت اثينا اعظم دول المدن اليونانية ، واكثرها خصبا ونفعا للانسانية .

كما كانت مكة قبل الاسلام وبعده المركز الديني والتجاري لشبه الجزيرة العربية ، بالاضافة الى انها اكثر دول المدينة العربية تقدما ورقيا . وربما يضاف وجه شبه اخر بين اثينا ومكة ، وهو ان الفكر السياسي والفلسفي الذي ابدعه فلاسفة دولة المدينة في اثينا كان حافز الهام وقوة للنهضة الاوربية الحديثة . كما كان الاسلام الذي انزل على احد ابناء مكة ، وساهم ابناؤها في حمله ونشره الاساس الذي بنيت عليه الحضارة الاسلامية .

تقع مدينة اثينا في بلاد اليونان على خليج ايجة Aegina ، وقد بنيت حول تلال صخرية يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ، مابين ٣٧٠ ـ ٤١٢

قدما . وهي تروي بواسطة جداول تنبع من الجبال القريبةمنها . «١» .

ويحدثنا التاريخ ان هذه المدينة اخذت تظهر للوجودحينما بدأت اول موجة من المستوطنين تستقر فيها حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م. ولكن شأنها لم يرتفع الاحينما اصبحت عاصمة اتيكا في حدود سنة٧٠٠ ق . م . حيث نشأت وازدهرت فيها دولة المدينة لمدة تقرب من ثلاثمائةعام . ثم مالت للتلاشي سنة ٤٠٥ ق . م . «٢» .

ويتكون شعب دولة المدينة في اثينا من عشر قبائل . يكتسب افرادها حق المواطنة ، وما يتفرع منه من حقوق سياسية بالوراثة . اما الاجانب المستوطنون في اثينا فلم يسمح لهم باكتساب صفة المواطن حتى لوامتدت بهم الاقامة في ربوع البلاد اجيالا متتابعة من الزمن . اما الرقيق فكانوا يعتبرون مجرد اشياء مملوكة للمواطنين ، يسخرونها لخدماتهم حسبمايشاءون . ومن ثم فلم يعترف للرقيق باية حقوق تجاه افراد المجتمع «٣» .

لاتوجد بين ايدينا ارقام محدودة عن عدد السكانفي دولة المدينة في اثينا . وكل ماهو متيسر لدينا تخمينات متضاربة عن ذلك . فبينما يشير جورج سباين ، استاذ الفلسفة في جامعة كورنل باميركاالى ان عدد سكان اثينا كان حوالي ثلاثمائة الف نسمة ، يشكل الرقيق ثلثهم «٤» ، نجد ان بارتلمي ، احد كبار اساتذة القانون الدستوري الفرنسي ؛يقرر في كتابه «القانون الدستوري ، طبعة ١٩٣٣» انعدد الرقيق في دولة اثينا كان يبلغ مائتي الف في حين ان عدد المواطنين الاحرار لم يزد على عشرين الفاً اى ان عدد الرقيق حسب تقديره كان يبلغ عشرة امثال عدد المواطنين «٥» .

Hutchinson's New 20th Century Encyclopedia, London, 1964,p.75 (١)

«٢» نفس المرجع ، ص ٤٩٢.

«٣» سباين، تطور الفكر السياسي، ج١ص ٢-٦.

«٤» سباين، تطور الفكر السياسي، ج ١ص٢.

«٥» الدكتور الحميد متولي، القانون الدستوري والانظمة السياسية، مصر ١٩٦٤ ص ١٠٢. راجع ايضاً: زيمرن، الفرد: الحياة العامة اليونانية «ترجمة الدكتور عبد المحسن الخشاب»، القاهرة ١٩٥٨، ص ٣٩٥.

ومهما بلغ عدد سكان دولة مدينة اثينا من المواطنين ، فانه لم يكن ليسمح بالتمتع لا حد بالحقوق السياسية الا لمن بلغ العشرين منهم ، وبشرط ان يكونوا من الذكور فقط ، اذ لم يكن يسمح للنساء بالتمتع بحقوق المواطنين السياسية ، كما كان للاب اليوناني ان يختار قبل اليوم الخامس لولادة طفله « الموت او الحياة» له. وكان ذلك من نصيب الفتيات على الاغلب لان تدبير امر صداقهن حين الزواج كان يكلف الاباء اليونانيين كثيرا «١» .

وبذلك يتضح ان مجموع المواطنين المسموح لهم بالمساهمة في الحياة السياسية للدول كان محدودا جدا «٢» . وهذا كله يلقي ظلالا من الشك حول صحة و صف دولة المدينة في اثينا بانها دولة ديمقراطية . ذلك ان الديمقراطية هي حكم الشعب بينما في دولة اثينا لم يسمح الاللمواطنين «الرجال » الاحرار بالمساهمة في الحكم ، اما اغلبية الشعب المؤلفة من النساء والرقيق والمقيمين الاجانب فكانت محرومة من المشاركة في الحياة السياسية للمدينة .

لقد كان نظام الحكم السائد في اثينا مايعرف بنظام الديمقراطية اى ان المواطنين كانوا يحكمون انفسهم بانفسهم حكما مباشرا . فكان يحق لكل مواطن توفرت فيه الشروط المطلوبة للمساهمة في الحياة السياسية ان يحضر اجتماعات «الجمعية العامة» للمواطنين التي تنعقد عشر مرات على الاقل في السنة ، ليمارس مع غيره من المواطنين صلاحيات الحكم عن طريق الموافقة على سن القوانين، وتعيين القضاة، ورجال السلطة التنفيذية، من اجل تسيير شؤون المدينة . كما كان لهم الحق في طرد، او الامر بمحاكمة كل موظف ثبت تقصيره في اداء واجبه . فكانت الجمعية الوطنية تمارس حقوق السيادة التي تتولى القيام بها البرلمانات في الانظمة الديمقراطية الحديثة «٣» .

« ١ » زيمرن، الحياة العامة اليونانية، ص ٣٩٩.

« ٢ » سباين، تطور الفكر السياسي ج١ص٥.

« ٣ » نفس المرجع ج ١ص٥ .

ولكن ماسبق ذكره عن حقوق المواطنين الذين يحكمون انفسهم حكما مباشرا لاينبغي ان يفهم انه قد تحقق فعلا في دنيا الواقع ، فالحقيقة ان الديمقراطية المباشرة ، بمعنى الحكم بواسطة الشعب كله ، لم تكن سوى خرافة سياسية،اكثرمنها نظاما من نظم الحكم كما يقرر ذلك بحق الاستاذ سباين «١» .

لذا فقد عهدت الجمعية العامة للمواطنين بصلاحيات ممارسة السلطة التنفيذية الى مجلس عرف بـ «مجلس الخمسمائة» ، لانه كان يتألف من خمسمائة شخص ، كل خمسين شخصاً منهم كانوا يمثلون احدى القبائل العشر التي يتألف منها مواطنو مدينة اثينا .

ونظرا لضخامة هذا العدد ، الذي يتعذر معه ممارسة صلاحيات الحكم ، فقد تقرر ان يعهد لممثلي كل قبيلة «الخمسين» بتولي شؤون الحكم عشر أيام السنة ، على ان يشاركهم في عملهم هذا ممثل واحد عن كل قبيلة من القبائل الاخرى .

وكان يختار رئيسا لهذا المجلس شخص واحد من بينهم بالاقتراع لمدة يوم واحد ، وعلى ان لا يتكرر انتخابه لمثل هذا المنصب مرة اخرى في حياته «٢» .

وقد كانت لمجلس الخمسمائة صلاحيات واسعة جدا ، حيث كان من حقه الاشراف على شؤون الموظفين،وادارة الامور المالية للدولة، بالاضافة الى تولي مسؤولية الدفاع عن الدولة وتمثيلها في علاقاتها الخارجية ، كما كان من حقه حبس المواطنين،بل اعدامهم . وذلك بحكم يصدره هو كمحكمة او يستصدره من محكمة عادية .

اما القرارات الخطيرة كتشريع قوانين جديدة او اعلان حرب ، او

« ١ » سباين، تطور الفكر السياسي، ج ١ص٦.

« ٢ » نفس المرجع ، ج١ص ٨-٩.

عقد صلح فكان لابد من استحصال موافقة الجمعية العامة للمواطنين عليه «١» .

اما السلطات القضائية في الدولة فقد انيطت بحكام ومحلفين يصل عددهم الى ستة الاف شخص ، ينتخبون كل عام من بين المواطنين الذين يلغوا سن الثلاثين . وكان اعضاء كل محكمة لا يقل عن ٢٠١ من المحلفين ، ويصل عادة الى ٥٠١ ، وقد كانوا يباشرون وظيفة القاضي والمحلف في آن واحد . اما المتقاضون امام المحاكم فكانوا يكلفون بالحضور امامها لعرض منازعاتهم حيث جرت العادة ان يؤخذ رأى المحلفين اولا على الادانة او البراءة فان كانت الاولى اخذ رأيهم كذلك على العقوبة ، فيقترح كل محلف العقوبة التي يراها عادة ، وقرار المحكمة نهائي على الدوام اذ لم يكن نظام الاستئناف موجودا وكان ذلك منطقيا من غير شك مادامت المحاكم الاثينية كانت تعمل وتقضي باسم الشعب كله «٢» .

ولم تقتصر اعمال المحاكم الاثينية على النظر في المنازعات المدنية والجنائية بين الافراد فحسب ، بل امتدت الى النظر في الطعون التي كان يتقدم بها المواطنون في صلاحية الموظفين لشغل الوظائف العامة ، كما شملت محاسبة الموظفين بعد انتهاء خدمتهم مدة . بالاضافة الى انه كان يدخل ضمن سلطاتها النظر في دستورية القوانين والقرارات الصادرة من المجلس التنفيذي، او الجمعية الوطنية بناء على طعن يقدم ضدها من قبل احد المواطنين . وبذلك كانت المحاكم الاثينية مظهرا لرقابة الشعب على حكامه ، وحجر الزاوية في النظام الديمقراطي لدولة المدينة في اثينا .

وقد ساعد على نشأة وتقدم نظام دولة المدينة في اثينا حب المواطنين الشديد لوطنهم واستعدادهم الدائم للتضحية في سبيله ، وعملهم على تقوية الجميع وتقديس الحرية وسيادة القانون «٣» .

«١» نفس المرجع ، ص ٩-١٠.

«٢» نفس المرجع ، ص ١٠.

«٣» نفس المرجع ، ج١ ص ١٣-٢١.

كما كان من عوامل ضعف هذا النظام شيوع روح التحزب التي سببت الفرقة والانقسام بين صفوف الشعب . بالاضافة الى ان شغل الوظائف العامة كان يتم الاقتراع دون مراعاة لشروط الخبرة والكفاءة مما ادى الى ضعف اجهزة الدولة وعجزها عن القيام بواجباتها بالمستوى المطلوب «١» .

هذا عن دولة المدينة في اثينا ، فماذا عن دولة المدينة في مكة ؟ ان مكة مدينة صغيرة تقع غربي الجزيرة العربية « الحجاز» على بعد ٤٥ ميلا من البحر الاحمر «٢» في «واد غير ذى زرع» عند بيت الله الحرام «٣» وقد احاطت بها الجبال المنيعة من كل جانب «٤» وهي تحتل موقعا تجاريا هاما على طريق القوافل الذي يربط اليمن والحبشة بكل من سوريا والعراق «٥» .

وقد ساعد هذا الموقع الجغرافي الممتاز مدينة مكة على التوسع والازدهار حيث ان وجودها في موقع محصن بالجبال قدجعل امر الدفاع عنها ضد هجمات المعتدين من الامور السهلة ، كما ان وجودها في منطقة تتمتع بقدسية دينية «حرم» قد ضمن لها حياة الامن والاستقرار . اما موقعها التجاري الممتاز فقد عوضها عن فقدان الزراعة بسبب الجفاف وجعلها مدينة تجارية من الطراز الاول .

ويشير القرآن الكريم الى ان اول من وضع نواة تكوين المدينة هو ابراهيم عليه السلام ، الذي عاش في حدود سنة ٢٣٠٠ ق . م . حينما اسكن ابنه اسماعيل وامه هاجر فيها . ثم بنى بعد ذلك الكعبة لتكون محلا للعبادة «٦» .

ولكن‌ما بين ايدينامن معلومات عن هذه المدينة لا تكاد تتجاوز الفترة التي استوطنت فيها قبيلة قريش في مكة بحدود مائتي سنة قبل بعثة الرسول

---

(١) متولي، القانون الدستوري والانظمة السياسية، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) Hutcheinson's New 20th Century Encyclopedia, p. 719

(٣) القرآن الكريم، سورة ابراهيم : ٣١

(٤) Hamidullah, M. The City State of Mecca, Islamic Culture, 1938, vol. 12, p. 260

(٥) Watt. Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3

(٦) القرآن الكريم، سورة ابراهيم: ٣٧، سورة البقرة: ١٢٥-١٢٧.

«ص» «١» . ومن أقدم القبائل التي يذكر انها سكنت مكة هي قبيلة جرهم ، ثم خلفتها قبيلة خزاعة وحليفتها قبيلة بكر ، ثم اخيرا استوطنت فيها قبيلة قريش ، التي اصبحت لها السيادة في هذه المدينة منذ عهد قصي بن كلاب «٢».

وقد تمكن قصي بحكم ماالديه من مال وبنين وشرف ان يصبح سيد المدينة من غير منازع . وقد اعانه على ذلك انه كان قد تزوج ابنه حليل بن حبشية ، سيد قبيلة خزاعة ، وصاحب الكلمة العليا في مكة . فلما توفي حليل طالب قصي باحتلال مركزه ، نظرا لكفاءته وشرفه في قومه ؛ ولان حليلا نفسه قد اوصى له بالرئاسة كما تذكر احدى الروايات . وقد تمكن قصي من التغلب على معارضة قبيلة خزاعة وبكر بقوة سلاح قبيلته قريش ، وبذلك اصبح سيد المدينة من غير منازع ؛ حتى أن امره كان في حياته وبعد مماته «كالدين المتبع لا يعمل بغيره» «٣» . ويروى ابن قتيبة في كتاب المعارف ان امبراطور الروم قد ساعد قصيا في بسط نفوذه على مكة ضد قبيلة خزاعة ، وربما كان ذلك على امل مد نفوذ الروم الى الجزيرة العربية . ولكن يبدو ان قصيا لم يمكنه من ذلك لانه كان يود ان يحافظ على استقلال مدينته بعيدا عن نفوذ الروم والفرس . ومما لاشك فيه ان هذا الموضع المحايد كان انسب وضع لمدينة تجارية مثل مكة . «٤» .

وقد قام قصي بتقطيع مكة رباعا بين قومه ، فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده واعوانه فسمته قريش مجمعا لما جمع من امرها «٥» . وقد عرفت المناطق المحيطة بالكعبة بالبطحاء او البطاح كما سميت المعلاة نظرا لارتفاع موقعها نسبيا . وقد سمي سكان هذه المنطقة بقريش

---

(1) Lammens, H. Islam, beliefs and institutions, London, 1964, p. 13

«٢» ابن هشام، السيرة النبوية «مطبوعة على هامش الروض الا نف» القاهرة، ١٩١٤ ج١ ص٨٠-٨٧

«٣» نفس المرجع ، ج ١، ص ٨٧-٨٨.

(4) Watt, Muhammad at Mecca, P. 13

«٥» ابن هشام، السيرة ، ج ١ص ٨٨.

البطاح وهم يشكلون الارستقراطية المكية . اما المناطق الواقعة في اطراف مكة والبعيدة نسبيا عن الكعبة فقد عرفت بالظواهر وسمي سكانها بقريش الظواهر «١» لذا قال الشاعر يفخر بانتسابه لقريش البطاح :

فلو شهدتني مـن قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر«٢»

وقد كانت العلاقة بين سكان مكة قائمة على الاساس القبلي حيث كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية في الجزيرة العربية ولم يكن سكان مكة مؤلفين من عدة قبائل كما كان الامر بالنسبة لسكان مدينة اثينا المؤلفين من عشر قبائل ، بل كان اغلبية سكان مكة منذ عهد قصي ينتسبون الى قبيلة قريش . وقد ساعد هذا الانسجام السكاني في المحافظة على وحدة وتماسك المجتمع في هذه المدينة «٣» .

وكما كان الامر بالنسبة لمواطني دولة اثينا . فقد كان جميع مواطني مكة القرشيين يعتبرون انفسهم اندادا لبعضهم ، يتساوون في الحقوق والواجبات ، وتقوم العلاقة بينهم على اساس التكافل الاجتماعي ، حيث ان من واجب كل فرد ان يدافع عن الاخرين ويتضامن معهم في حالات الحرب والسلم على السواء «٤» .

اما الاجانب فكان وضعهم في مكة احسن من وضعهم في اثينا بكثير ، ذلك ان بامكان الاجنبي ان يكتسب المواطنة او الانتساب لقبيلة قريش بمجرد عقد حلف مع القبيلة او مع اى فرد منها «٥» . اما في اثينا فكان الاجنبي محروما من اكتساب صفة المواطن حتي لوقام اجيالا متصلة في اثينا كمالاحظنا سابقا .

---

(1) Hamidullah, The City State of Mecca, p. 258.

«٢» ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٦٠،ج ١ص ٧١.

«٣» الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦٠.

«٤» العلي، الدكتور صالح احمد، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد ١٩٥٥ص ١٣٣.

«٥» الشريف، مكة والمدينة، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٥، ٣١.

اما الرقيق في مكة كان شأنهم شأن الرقيق في اثينا ، اذ كانوا يعتبرون اشياء مملوكة للاسياد ليس لها اية حقوق ومن ثم فهي غير مؤهلة للالتزام بالواجبات «١» .

وقد كان مركز المرأة الاجتماعي والسياسي في المجتمع الجاهلي سيئا ؛ وذلك لانها كانت ضعيفة غير قادرة على حمل السلاح للدفاع عن القبيلة ، لذا فقد كان الناس يتشاءمون من ولادتها ، وكان افراد بعض القبائل يئدون بناتهم «٢» . ومن ثم فلم يسمح للمرأة المكية بالمشاركة في الحياة السياسية للمدينة كما كان الامر بالنسبة للمرأة الاثينية ايضا كما ذكرنا .

ولكن كم كان عدد سكان مكة ؟ . . . لاتوجد بين ايدينا معلومات تعيننا على تقدير عدد سكان مكة في عهد قصي ، ولكن ما اورده بعض المؤرخين عن عدد المقاتلين من مكة الذين شاركوا في حروب المشركين ضد الرسول «ص» ، قد يعيننا على تقدير عدد سكان مكة في ذلك العهد بصورة تقريبية .

وقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين ذلك ، فذكر أج . جي ، ويلز ان عدد سكان مكة في عهد الرسول«ص» كان يتراوح بين عشرين الفا وخمسة وعشرين الفا «٣» . بينما اشار مونتكمري وات ان عددهم ربما كان يزيد قليلا عن خمسة الاف نسمة «٤» . ويبدو ان تقدير مونتكمري وات اقرب للصواب ، لان عدد المقاتلين من مكة في معركة بدر كان تسعمائة وخمسين مقاتلا فقط «٥» .

وان مكة وحلفاءها لم تستطع ان تدفع الى معركة احد ، التي اعدت لها

«١» نفس المرجع ، ص ٣١.

«٢» القرآن الكريم سورة النحل: ٥٨-٥٩، سورة التكوير: ٨-٩.

(3) Wells, H.G. The outline of history, London, 1961, p. 595

(4) Watt, Islamic political thought, Edinburgh, 1968, p. 3

«٥» الطبري، تاريخ الطبري، مصر- ١٩٦١، ج ٢ص ٤٢٣.

اعدادا جيدا ، اكثر من ثلاثة الاف مقاتل «١» . فلابد ان عدد سكان مكة كان يتراوح بين خمسة الاف وعشرة الاف نسمة على اكثر تقدير . لذلك يمكننا ان نلاحظ ان مدينة اثينا تفوقت على مكة من حيث عدد السكان اضعافا مضاعفة . وان عدد سكان مكة في عهد الرسول لم يكونوا ليتجاوزون سكان قرية كبيرة في عصرنا الحاضر . وقد اعانت قلة عدد سكان مكة على بساطة الحياة والتنظيمات فيها ، وسهولة حل المشاكل التي قد تحصل بين سكانها .

هذا ولم تعرف مكة في مجال الحكم والادارة ، نظام «الجمعية العامة» للمواطنين الذي كان سائدا في اثينا ، وما يتفرع عنه من تصويت وانتخاب لرجال السلطة التنفيذية «مجلس الخمسمائة» . بل كان افراد كل اسرة وعشيرة يختارون رئيسا لهم من بين كبار رجالهم الذين يبزون الاخرين بصفات الكرم والشجاعة والحكمة .

وقد كان الانتخاب يتم عادة بطريقة تلقائية ولمدى الحياة «٢» . ومن ثم كان رئيس العشيرة يجمع بين صفة التمثيل لقومه والقيادة لهم في شؤون الحرب والسلم . كما كان يتولى حسم المنازعات التي تحصل بينهم .

وتبعا لذلك فقد كان مجلس القبيلة يتألف من رؤساء الاسر والعشائر الذين يعتبرون ممثلين لقومهم «الجمعية العامة للمواطنين» كما يملكون السلطة التنفيذية في القبيلة على اعتبار انهم الرؤساء الحقيقيون لاسرهم وعشائرهم «٣» ومن ثم فقد اجتمعت في يد مجلس القبيلة سلطات الجمعية العامة ومجلس الخمسمائة الاثيني .

وقد كان رجال مجلس القبيلة يدعون بالملأ : وقد وردت عدة اشارات في القرآن الكريم الى الملأ باعتبارهم اصحاب السلطة العليا في قومهم : فقد

«١» ابن هشام، السيرة، ج ٢ص ١٢٩.

«٢» الشريف ، مكة والمدينة ص ٢٥، فروخ ، الدكتور عمر، تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ص ١٥١-١٥٢.

(٣) Lewis, B. The Arabs in History , London, 1950, P.P. 34-35 .

اشار القرآن الكريم «الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله » «١» ، كما اشار الى الملأ في مصر «وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » «٢» كذلك ورد ذكر الملأ على لسان ملكه سبأ : « يايها الملأ افتوني في امرى ماكنت قاطعة امرا حتى تشهدون » «٣» . كما اشار القرآن الى ملأ مكة بقوله : وانطلق الملأ منهم » «٤» .

وقد انشأ قصي بن كلاب دارا خاصة لاجتماع رجال الملأ في مكة سماها «دار الندوة» وجعل بابها الى الكعبة الكعبة «٥» ، حيث يجتمع فيها رجال الملأ للمداولة واتخاذ القرارات في كل مايعنيهم من امور ، ففيها « يكون امر قريش كله ، وما ارادوا من نكاح او حرب ، او مشورة فيما ينوبهم » «٦» ، كما كان يتم في دار الندوة الاعلان عن بلوغ المواطنين «حتى ان كانت الجارية تبلغ ان تدرع فما يشق درعها الافيها » «٧» . « ولا يعذر لهم غلام الا في دار الندوة » «٨» . وكذلك فقد كانت دار الندوة المركز الذي تنطلق منه وتعود اليه القوافل التجارية «٩» . فكانت دار الندوة مركز الحكومة المكية ومجلس الشورى الخاص بها .

ولم يكن هناك نظام لاجتماعات دار الندوة ، وانما كانت الاجتماعات تتم بصورة تلقائية ، وعند الحاجة ، نظرا لبساطة المجتمع المكي في ذلك الحين بعكس الامر في اثينا حيث كانت تتم اجتماعات الجمعية العامة عشر مرات

« ١ » سورة البقرة: ٢٤٦.

« ٢ » سورة القصص: ٢٠

« ٣ » سورة النحل: ٣٢

« ٤ » سورة ص : ٤-٨.

« ٥ » ابن هشام: السيرةج ١ص ٨٨.

« ٦ » ابن سعد، الطبقات، ج ١ص ٧٠.

« ٧ » نفس المرجع ، ص ٧٠.

« ٨ » ابن سعد، الطبقات، ج ١ص ٧٠.

« ٩ » نفس المرجع ، ص ٧٠.

في السنة على الاقل . كما انه ليس لدينا صورة واضحة عن الكيفية التي تتخذ فيها القرارات في دار الندوة . ولكن يبدو ان المداولة كانت تتم في جو من الحرية ، بعيدا عن الاجراءات والشكليات التي كانت متبعة في اثينا . وكان الهدف هو التوصل الى قرارات تنال موافقة الجميع . ولكن في حالة تعذر ذلك ، فقد كان الجميع ينزلون عند الرأى الذي يرجحه رئيس القبيلة، قصي بن كلاب ، لما كان يتمتع به من تقدير واحترام عظيمين ، حتى لقد كانوا يعتبرون امره « كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته » «١» . اما بعد وفاة قصي ، فلم يبرز من رجال مكة من يستطيع ملء المكان الذى كان يحتله قصي ، لذا فقد كان رجال الملأ يعتبرون انفسهم اندادا لبعضهم ومن ثم فقد كان لابد من صدور القرار باجماع الاراء كي يكتسب قوة ملزمة ، لذا فقد كان رجال الملأ يبذلون مجهودا ضخما في المداولة والمساومة من اجل الوصول الى هذه القرارات . وقد اعانهم على ذلك قدرتهم التجارية العالية على المساومة والاقناع «٢» . ولكن في حالة الاخفاق في التوصل الى قرار جماعي ، فقد كانت الاغلبية تحاول فرض رأيها على الاقلية عن طريق الضغط الادبي والاقتصادي ، او حتى المقاطعة كمافعلت قريش ضد بني هاشم حينما اصروا على حماية الرسول «ص» «٣» . وقديصل الامر الى تهديد الاغلبية باستعمال الحرب لفرض رأيها على الاقلية كما حصل في حلف الفضول حينما تعاقدت بعض عشائر مكة وتعاهدت «على الا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الاقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته» «٤» .

وطبعا فقد كان فقدان النظام الذي ينظم اتخاذ القرارات بموجب رأى

« ١ » نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ابن هشام، السيرة ج ١ص ٨٨.

(٢) Watt, Muhammad at Mecca, p.8.

« ٣ » ابن هشام، السيرة، ج ١ص ٢١٩-٢٢٠.

« ٤ » نفس المرجع ، ج ١ص ٩٠.

وعدم وجود رئيس معترف له بالرئاسة من قبل الجميع بعد وفاة قصي بن كلاب ، من العوامل التي اضعفت دولة المدينة في مكة ، وكانت مثارا للازمات التي وصل بعضها الى حد تهديد بعض العشائر المكية باستخدام السلاح ضد العشائر الاخرى كما حصل قبل حلف المطيبين «١» .

وحصل بعد حلف الفضول «٢» ولكن على الرغم من ذلك ، فقد تمكن رجال الملأ ان يتغلبوا على هذه الثغرة بحكمتهم ومهارتهم في المساومة والاقناع التي حصلوا عليها نتيجة احترافهم لمهنة التجارة .

وقد كان يرتبط بواجبات السلطة التنفيذية في مكة ، العديد من الوظائف التي تستهدف تنظيم الحياة الدينية . وحماية الامن ، وتوفير الرفاه الاقتصادي للسكان ، وكان بعض هذه الوظائف قائما قبل ان يتولى قصي بن كلاب السلطة في مكة . فاقر ماكان قائما واستحدث بعض الوظائف الاخرى «٣» .

واهم الوظائف الدينية التي كانت قائمة في مكة قبل الاسلام مايلي :

١ – السدانة : وهدف هذه الوظيفة هوخدمة الكعبة .

٢ – الحجابة : وهي حيازة مفاتيح الكعبة ، والاشراف على فتح وغلق ابوابها . وقد كانت هذه الوظيفة مصدر دخل مالي لمن يتولى القيام بها .

٣ – السقاية : ويقوم من يتولى هذه الوظيفة بتوفير الماء للحجاج ، وهو عمل ذواهمية كبيرة في بلد يندر فيه الماء كمكة .

٤ – عمارة البيت : وهي مراقبة مايجرى في داخل الكعبة ، ومنع اى انتهاك لحرمتها من استعمال الكلام الفاحش او رفع الصوت بشكل مزعج ، او المشاجرة في داخلها «٤» . وقد اشار القرآن الى بعض هذه الوظائف بالاية الكريمة : «اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن

«١» ابن هشام، السيرة، ج ١ص ٩٠.

«٢» ابن هشام، السيرة، ج ١ص ٩٠.

«٣» نفس المرجع ، ص ٨٧.

«٤» نفس المرجع ، ص ٨٨، ايضاً:

Hamidullah, The City State of Mecca, P. 266.

بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله : لا يستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين » «١» .

٥ — الرفادة: وهي جمع بعض الاموال من سكان مكة وصنع الطعام للحجاج الفقراء ويروى ان قصياً لما فرض ذلك على اهل قريش قال لهم :

« يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرم وان الحجاج ضيف الله واهله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا ايام الحج حتى يصدروا عنكم .» «٢» .

وقد ساعد استتباب الامن والاستقرار في مكة واعتبارها حرماً امناً لا يجوز سفك الدماء فيها ولا صيد الحيوانات منها ، ولا حتى تقطيع اشجارها، وذلك بسبب وقوع الكعبة في داخلها وهي التي يحج اليها الناس من مختلف انحاء الجزيرة العربية للطواف فيها وتقديم النذور والقرابين لاصنامهم التي كانت في صحن الكعبة «٣» .

وكان الناس يفدون الى مكة بكثرة خلال الاشهر الحرم ، وهي ثلاثة اشهر متصلة : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، حيث يتم فيها الحج الاكبر . وشهر منفرد ، وهو رجب حيث يتم فيه الحج الاصغر او العمرة . «٤» .

وكان من عادة العرب ان يستغلوا هذه الاشهر للمتاجرة مع بعضهم بعضا ومع سكان مكة، مما اتاح للمكيين فرصة ذهبية للمتاجرة وتوسيع علاقاتهم الاقتصادية والسياسية مع غيرهم من القبائل. وقد اعانهم على ذلك كونهم سكان الحرم وحماة بيت الله الحرام «٥» .

وقد استغل قصي كثرة توافد الناس للمتاجرة في مكة ففرض ضريبة العشر على جميع البضائع الداخلة لمكة والعائدة لغير اهلها. ولاشك ان دخل هذه

« ١ » سورة التوبة: ١٩.

« ٢ » ابن هشام، السيرة ج ١ص ٨٩.

(٣) Hamidullah, The city State of Mecca, p. 267.

« ٤ » نفس المرجع ص ٢٦٧-٢٦٨، راجع سورة التوبة: ٣٦

« ٥ » الدكتور جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٨ص ١٥٨.

الضريبة كان يعينه كثيراً على تقوية مركزه المالي كرئيس لمكة ويساعده على تقديم مزيد من الخدمات للسكان «١» .

ومن أجل ضمان تجارة قريش وتوسيع مداها، فقد سعى اولاد عبد مناف ان يدخلوا باحلاف وعلاقات طيبة مع القبائل المجاورة ومع الدول الكبيرة التي تتجه التجارة الى اسواقها. فنجحوا في الحصول على حماية تجارة مكة من قبل كل من امبراطور الروم وكسرى فارس ونجاشي الحبشة ورؤساء قبائل اليمن «٢». ونظراً لان الطريق الى هذه الدول لم يكن مأموناً بسبب غارات البدو على القوافل، فقد عقدوا أحلافاً مع قبائل البدو الواقعة على طريق القوافل كي تتولى حمايتها نظير اجر محدد او نظير السماح لها بالمساهمة في تمويل القوافل والحصول على ارباح كما هو الامر بالنسبة لسكان مكة «٣» .
وقد دعيت هذه الاحلاف بالايلاف، واشار القرآن الكريم اليها بقوله : «لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» «٤» .

وبذلك فقد ساعد موقع مكة الديني واحلافها التجارية والسياسية مع غيرها من قبائل العرب ان يضمن لها الامن والرفاه الاقتصادي في ان واحد. ولكن كل ذلك لم يجعل رجال مكة يهملون شئون الدفاع عن مدينتهم واعداد الافراد القادرين على الحرب بكفاءة. لذا فقد وجدت بعض الوظائف ذات الطبيعة الحربية في مكة كصاحب العقاب واللواء وحلوان النافر، وما الى ذلك. كما ابلى رجال مكة بلاءاً شديداً في حرب الفجار وفي الحروب التي وقعت بينهم وبين الرسول «ص» «٥» .

«١» ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١ص ٧٠.
«٢» نفس المرجع ، ج ١ص ٧٥.
«٣» نفس المرجع ، ج ١ص ٧٥، راجع ايضاً:
Shaban, M. A. Islamic History, Cembridge, 1971, p . p . 6 - 7
«٤» سورة قريش: ١-٤
(٥) Hamidullah, The City State of Mecca, p . p 269-270 ; 272-273

وهنا قد يكون من الضروري ان نتساءل عن طبيعة النظام القانوني الذي كان يحكم العلاقات بين الافراد في مكة وطبيعة السلطة القضائية فيها. والحقيقة ان مكة والجزيرة العربية بأجمعها لم تعرف قبل الاسلام القوانين والتشريعات المدونة التي تنظم شؤون الحياة فيها. لذا فقد كان العرف السائد يقوم مقام القوانين، وكان يتمتع باحترام وقدسية في نفوس الافراد. كما لم يكن هناك محاكم قائمة تتولى حسم المنازعات بين الافراد، بل كان الذي يقوم بدور المحاكم هو شيخ القبيلة الذي يتولى حسم المنازعات بين افراد قبيلته. كما كان الكهان والحكام يتولون فصل المنازعات التي تعرض عليهم، ولكن نقطة الضعف في هذا النظام ان الحكم لم يكن بامكانه الزام المتنازعين بعرض الخصومة عليه كما لم يكن بمقدوره أن ينفذ حكمه على المتنازعين لو رفض احد الاطراف قبول الحكم «١»

وبذلك يتضح لنا ان نظام القضاء في اثينا كان متفوقاً بكثير على نظام التحكيم الذي كان سائداً في مكة وبقية انحاء الجزيرة العربية.

وفي الختام، ان صح وصف الحكم في دولة المدينة في اثينا بانه «نظام الديمقراطية المباشرة»، فقد يصح ان نصف نظام الحكم الذي كان سائداً في دولة المدينة في مكة بأنه نظام «الارستقراطية التجارية القبلية» ورغم نقاط الضعف العديدة التي لاحظناها على نظام الحكم في دولة المدينة في مكة، فان ذلك لم يمنع هذا النظام من العمل ومن تحقيق الازدهار التجاري لمكة، حتى لقد كانت هذه المدينة اغنى المدن العربية في اواخر القرن السادس الميلادي «٢» وربما كان هو السبب الذي دفع الاستاذ مونتكمرى وات الى تقرير: «لقد كان ملاء مكة اكثر حكمة واكثر شعوراً بالمسؤولية من مجلس الشيوخ الاثيني وتبعاً لذلك. فقد كانت قراراته في أغلب الاحيان تصنع على اساس قوي من جدارة الرجال وقدراتهم السياسية، لا على اساس العبارات البلاغية الخادعة التي تجعل الامر السيء امراً حسناً » «٣» .

---

(١) Schacht, J. An Introduction to Islamic Law, Oxford, 1964, p . p . 78
العلي ، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١ص١٠١.

(٢) Watt, Muhammad at Mecca, p . 3

«٣» نفس المرجع ، ص ٩.